الفصل الثامن

معالم فى طريق الرجولة

تبين من نتائج الدراسة التحليلية التى تضمنتها الفصول المتقدمة ، أهم العوامل والظروف التى تتشكل بها المراهقة فى الحالات المختلفة . واستكمالاً للمناقشة ، ننظر — فيما يلى — إلى موضوع « المراهقة » من زاوية جديدة ، هى زاوية التغيرات التى تطرأ إبانها على النمو ، وما يترتب على هذه التغيرات — فى ذاتها وفى تفاعلها مع البيئة الاجتماعية — من حاجات وصعوبات خاصة .. ونبدأ أولاً بالتغيرات الجسمية وهى أبرز تغيرات النمو فى المراهقة ، ثم ندلف منها إلى بعض الاعتبارات الهامة للتطور نحو الرجولة ، حيث نستأنف الرحلة فى الطريق الموصل بين الطفولة والرجولة (مرحلة المراهقة) فى فصول تالية .

التغيرات الجسمية والفسيولوجية

يتميز النمو الجسمى فى المراهقة بسرعته المذهلة .. وتقترن هذه السرعة بعدم الانتظام وبعدم التماثل فى النمو !

فمن حيث السرعة التى ينمو بها الجسم فى المراهقة فهى أكبر منها فى

أى وقت آخر منذ شهور العمر الأولى، ولذلك تكون التغيرات فى الأبعاد الجسمية واضحة بارزة ، بل هى وثبات أو قفزات فى النمو تفرض نفسها فرضاً على المراهق ، فلا بد له من أن يلحظها ويهتم بها ، ولا مفر أيضاً من أن يلحظها الذين حوله ويشعرون بها ! والصعوبة الأساسية التى تترتب على هذه التغيرات السريعة سرعة خيالية ، هى فى محاولة اللحاق بها ومسايرتها ، أى محاولة إعادة تنظيم الحياة النفسية لتساير الأوضاع الجديدة لنمو الجسم .. ولا يتأتى ذلك — بطبيعة الحال — دون شىء من الاضطراب والقلق ، الذين يزيد منهما إدراك المراهق لمراقبة المحيطين به ، أثناء محاولاته فى التلاؤم النفسى ! ويختلف الأمر — مع ذلك — باختلاف موقف هؤلاء المحيطين وحسن إدراكهم وتعاطفهم مع حاجات المراهق المتطورة .

ويجب أن نذكر أن سرعة النمو الجسمى الكبيرة فى المراهقة ، إنما تأتى عقب فترة مستطيلة من النمو الهادىء الرصين الذى تتصف به الطفولة المتأخرة . . . ويمكن لنا أن نتصور إنساناً استتبت أموره واستكان زماناً طويلاً إلى أوضاع منتظمة معلومة ، وإذا بأحوال مفاجئة تطرق بابه فتقطع عليه هدوءه ونظامه اللذين درج عليهما ، وإذا عليه فجأة أن يستبدل بحياته الرتيبة نشاطاً وحركة ومخاطرة ، وأن يفتش عن مستويات جديدة أعلى للأمن والتوافق ! . . فهذا هو المراهق عندما يفجأه ارتفاع مطرد فى قامته ، واتساع لمنكبيه ، واشتداد فى عضلاته ، واستطالة ليديه وقدميه ، واجتراح وتكسر فى صوته . . إلى الطلائع الأولى للحية

والشارب ، والشعر الذى خط فى مواضع مختلفة من جسمه ، وإلى « بثور الشباب » التى تتناثر على الوجه ، بله الإفرازات المنوية التى لا عهد له بها والنشاط الجديد لغدد التناسل وغيرها ! ! . . . فما أبعد الشقة بين هذا المراهق المتطور وبين الطفل الذى خلفه وراءه ! وما أعظم الطفرة التى انتقلت الأمور بها ! وما أعجب ما يتولد عن هذه التغيرات السريعة من إحساسات غريبة مبهمة وقوى محركة جديدة !

وهناك وجه آخر للنمو الجسمى فى المراهقة وهو عدم التماثل ، أى أن النمو لا يكون متساوياً أو متماثلا فى الأجزاء المختلفة للجسم ، بل تسبق أجزاء منها أجزاء أخرى فى نموها ، فإذا بالأنف — مثلاً — بادية الكبر ، والوجه غير متناسق ، والجسم لا يتناسب طولاً وعرضاً . . . ويترتب على عدم التماثل فى النمو أن المراهق لا يستطيب شكله لفترة طويلة ، كما يترتب عليه اختلال التوافق الحركى ، وفقد المراهق لاتزان الحركة ونعومتها والتحكم فيها ! أضف إلى هذا تعليق بعض الكبار — والصغار — على هذه المظاهر ، مما يزيد فى حرج المراهق وتعثره وضيقه ! !

وإلى جانب التغيرات السابقة ، هناك تغيرات أخرى فسيولوجية أقل وضوحاً ولها مع ذلك تأثيرها القاطع على المراهقين — من ذلك التغير فى معدل النبض الذى ينخفض بعد البلوغ بمعدل ٨ مرات فى الدقيقة ، والتغير فى ضغط الدم الذى يرتفع تدريجاً ، والتغير فى نسبة استهلاك الجسم للأوكسجين التى تنخفض عما قبل . . وتتسبب هذه التغيرات فى شعور

المراهق فى بعض الأحوال بالتعب والتخاذل وعدم القدرة على بذل المجهود البدنى الشاق . ويجهل كثيرون من الكبار السر فى هذه الأعراض ، فيرمون المراهق بالكسل والخمول والنية السيئة ! !

اختلاف فى موعد البلوغ :

ليس هذا فحسب ، بل إن بعض الأفراد يبلغون الحلم مبكرين وبعضهم يصلونه متأخرين ، فإذا بفترة زمنية تبلغ خمس سنوات تفصل بين أول المبكرين وآخر المتأخرين !

فكل فرد يتبع فى نموه نمطاً يختص به وحده ، وكل فرد يخط — على مدى السنين — منحنى لنموه لا يشاركه فيه أحد غيره ! وإلى هذا ، فإن البلوغ مرتبط باشتداد عمل الغدة النخامية والغدد التناسلية على وجه الخصوص ، وبضمور الغدتين المعروفتين « بغدتى الطفولة » وهما الغدة الصنوبرية والغدة التيموسية . . . والنتيجة أن بعض الأفراد يسبقون آخرين إلى البلوغ ، فيطول بالأولين أمد المراهقة ، ويكونون عادة أوفر نمواً وأضخم أجساماً .

واختلاف المراهقين فى موعد البلوغ — بالرغم من أنه أمر طبيعى — يتسبب فى بعض الصعوبات الخاصة للذين يتأخر بلوغهم ، حيث يحسون من جراء ذلك القلق والهم ، وحيث يترقبون بصبر فارغ اللاحاق بالسابقين لهم ويصطنعون أحياناً الوسائل التى تظهرهم بمظهر البالغين أو ما يظنون أنه مظهر البالغين !

الفروق الفردية فى النمو الجسمى :

وكما يختلف المراهقون فى موعد بداية المراهقة ونهايتها وطول مدتها ، فإن بينهم كذلك فروقا فردية واسعة فى الأبعاد المختلفة للنمو الجسمى . وليست هذه الفروق الفردية وليدة المراهقة فهى تقوم بين الأطفال قبل ذلك ، ولكن النمو السريع فى المراهقة مما يبرز هذه الفروق ويضخمها تضخيما ، بل مما يفرض على المراهقين إجراء المقارنة بين جسومهم وأطوالهم وقواهم العضلية .. ويفرض عليهم الاهتمام بما يطرأ على الأبعاد الجسمية من تغيرات . وقد دل البحث الحالى على أن هذا الاهتمام يصل فى مجموعات المراهقين حد المفاخرة بالقوة البدنية وإطالة التحدث فى موضوعاتها والمكاشفة أحياناً بأجزاء الجسم المستترة ! . . ومن الطبيعى أن المقارنة بين الأبعاد الجسمية لا تكون فى صالح البعض الذين يحسون لذلك النقص والدونية . ويزيد القلق إذا لم يجد المراهق فى مجموعة الأقران أو زملاء الفصل من يقاربه فى التكوين الجسمى أو مستوى النضج ، وإذا لم يجد من بين الكبار من يوجهه نحو تقبل حقيقة الفروق الفردية الواسعة ، ويشير له — فى نفس الوقت — إلى المميز فى قدراته واستعداداته الخاصة ونواحى المهارة عنده !

ومما له دلالة كبيرة أن ضآلة التكوين الجسمى كانت عاملا أساسياً فى سوء

تكيف المراهقة فى كثير من حالات البحث الحالى ، بل كادت أيضاً أن تكون وجهاً ثابتاً فى المراهقة المرضية المنحرفة(١) .

ولعل من المفيد أن نشير فى هذا المجال إلى ما لجأت إليه بعض المدارس الثانوية فى الخارج ، من المقاربة بين تلاميذ الفصل الواحد فى النمو الجسمى ، لتجنب المتطرفين فى النمو — سواء بالزيادة أو النقص — متاعب الاختلاف الكبير عن الآخرين وشعورهم بالعزلة عنهم . ومما يحققه هذا الاتجاه أيضاً ، التقارب فى مستوى النضج الوجدانى وفى الميول والاهتمامات ، الذى يقترن عادة بالتقارب فى النضج الجسمى . . كذلك اتجهت مدارس أخرى إلى توزيع التلاميذ على أساس الصداقات القائمة بينهم واختيار الزملاء بعضهم لبعض ، مما يتسنى معه إشباع حاجات المراهقين إلى الانتماء والتعاطف وتجانسهم فى الاهتمامات والميول ، واشتراكهم فى الطرق الدراسية التى تقوم على التعاون والمبادلة كطريقة « المشروعات » .

اعتبارات التطور نحو الرجولة

وليست التغيرات الجسمية هى كل أنواع التغيرات التى تطرأ على النمو فى المراهقة ، وإن كانت أكثر هذه التغيرات بروزاً وأقربها إلى ملاحظة المراهق والمحيطين به . . فى سائر نواحى النمو العقلى والوجدانى والاجتماعى يحدث التغير والتطور ، الذى لا يلتزم بسرعة موحدة فى هذه الجوانب

---

(١) انظر الفصول من الرابع إلى السادس من الكتاب .

المختلفة . وتصل هذه السرعة أقلها فى النمو العقلى حيث لاتميزه وثبات أو طفرة ، وحيث يسير النمو متئداً نحو نهاية النضج ، فيصل هذه النهاية إبان المراهقة بالنسبة لبعض القدرات العقلية ويقترب منها بالنسبة لبعضها الآخر .

ويترتب على تغيرات النمو المختلفة وعلى التطور نحو الرجولة ، نشوء حاجات جديدة للمراهق واشتداد حاجات أخرى قديمة . وفيما يلى عرض سريع لبعض من أهم هذه الحاجات والاعتبارات ، وسنواصل — فى الفصول التالية — مناقشة وجوه جانبية لها ، جديرة بالعناية والتأمل . —

١ — يستتبع الانتقال من الطفولة إلى الرجولة ، انتقالاً من الاعتماد على الغير إلى الاستقلال بالمسئولية الشخصية والاعتماد على الذات . — ولهذا الاستقلال جانبان مترابطان : جانب اجتماعى وآخر وجدانى !

فمن حيث الاستقلال الاجتماعى ، فإن المراهق يتطلع إلى أن يتبوأ مركزاً مسئولا فى مجتمعه ، وأن يقوم بالوظائف والمهام التى يطلع بها الراشدون ، وأن يتخلص من تطفله الاقتصادى على والديه ويصبح له كيانه واعتباره الاجتماعى الخاص . . . ويتأتى كل هذا بطريق طبيعى فى المجتمعات البسيطة ، حيث يباشر المراهق المسؤليات الاجتماعية دون تسويف كثير . أما فى المجتمعات المتحضرة ، حيث تمتد طفولة الفرد الاقتصادية والاجتماعية ، فإن المسألة تأخذ شكلا معقداً ، ويصبح أحد محاور القلق عند المراهقين تأمين المستقبل من حيث العمل أو الدراسة المهنية . . ومما لاحظناه فى البحث

الحالى أن النجاح فى الدراسة يأتى فى مقدمة الموضوعات التى يشغل بها المراهقون المصريون ، وخاصة المراهقون من أبناء المدن . ولعل للأهمية التى تعطى للشهادة الدراسية فى التوظف وللنظام الذى درجنا عليه فى قبول الطلبة بالجامعات ، نصيب كبير فى هذا الانشغال والقلق ، وفى أن النجاح المدرسى أصبح إحدى القيم الأولى فى ثقافة كثير من الأسر المصرية !

وقد اتجهت بعض مدارس الغرب إلى تهيئة برامج خاصة لطلبتها ، بقصد تعريفهم بإمكانيات المهن والأشغال المختلفة فى البيئة المحيطة وبأنواع الدراسات العليا والجامعية القائمة ومقتضيات كل منها ، حتى يتخفف المراهقون بذلك من قلقهم نحو المستقبل المجهول ! كذلك عمدت بعض المجتمعات المتحضرة إلى تشغيل المراهقين فى معسكرات العمل والأعمال الموسمية — مثل جمع المحاصيل الزراعية — ، وشجعت بعضها فرص اشتغال الطلبة أثناء الدراسة ، وهذا كله مما يخفف حدة الشعور بطول فترة الطفولة الاقتصادية ، وتأخر تحمل المسئولية والمساهمة الفعلية فى المجتمع . . . هذا ، وتقوم الجمعيات المدرسية ونوادى الشبيبة وفرق الكشافة وما إليها ، بدور هام فى إشباع حاجة المراهقين إلى تبوء المسئولية والتأثير الاجتماعى والشعور بالأهمية والاعتبار .

أما من حيث الاستقلال الوجدانى العاطفى ، فلعله ألزم للمراهق وأشد ارتباطاً بمعانى الرجولة من الاستقلال الاقتصادى الاجتماعى ! ولذلك يسعى المراهق عادة إلى التخلص من ربط التعلق الطفلى بأبويه ، ويرغب فى التحرر منهما عاطفياً ، وفى تكوين شخصيته المستقلة والبت بنفسه فيما يهمه من

أمور ! ولا بد أن يحدث هذا « الفطام » النفسي من الأبوين حتى يمكن للمراهق أن يعزز مكانته فى مجموعة النظراء ، وأن يحقق الاستقلال الاجتماعى خارج الأسرة .. على أن الفطام لا يتم فى يسر لكثير من المراهقين الذين يصعب على آبائهم أن يغيروا المعاملة التى اعتادوها معهم أطفالا ، ويشق عليهم الاعتراف بانضمام شخص بالغ جديد إلى الأسرة !

٢ — ويرتبط بالتطور نحو الرجولة ، تزايد اهتمام المراهق بمجموعات الأقران والنظراء . وليس هذا الاهتمام وليد المراهقة ، بل إنه يبدأ فى اليوم الذى يلعب الطفل مع غيره من الأطفال ، حيث يحظى مايقوم به الأطفال الآخرون والوسائل التى يتبعونها فى التفكير بجانب كبير من اعتباره ... وتزداد حساسية الطفل ، فى المدرسة الابتدائية ، لأحكام وتقاليد مجموعة النظراء التى يحاول جاهداً أن يتوحد معها ، وإن ظل مع ذلك مقيماً على ولاء أكبر للأسرة وقيمها ومثلها السلوكية .

أما فى المراهقة ، فإن التأثر بمجموعة النظراء والولاء لها يكاد يطغى على أشكال الولاء الأخرى ، فيصبح لرأى الأقران والأصحاب الاعتبار الأول عند المراهق ! .. ويرى بعض الآباء والمدرسين فى ذلك تهديداً لسلطانهم ويظنون أن المراهق يشق عليهم عصا الطاعة .. وحقيقة الأمر أن المراهق يرغب — كما قدمنا — فى التحرر الباطنى من الأشخاص الذين تعود الاعتماد عليهم طفلا ، وأن مسلكه ليس إلا مظهراً للنمو الاجتماعى ، والرغبة فى توسيع دائرته الاجتماعية بما يتناسب مع اطراده فى النمو ، والرغبة فى

إجراء التجارب الواقعية على الحياة ، والبحث عن مستويات أعلى للأمن النفسى لم تعد الأسرة وحدها قادرة على كفالتها ! . . ولا يخفى هذا قيام التمرد على المدرسين أو الآباء فى الأحوال التى تستدعيه ، مثلما يحدث عندما يسىء الكبار معاملة المراهق ، أو عندما يستمرون فى معاملته معاملة الطفل ، أو عندما يسيئون فهم تعلقه بثلته وأصحابه ويعترضون على هؤلاء الأصحاب بأساليب تنقصها اللياقة والحكمة ! ! ولعل خير ما يفعله الآباء فى هذا الصدد ، أن يشجعوا المراهق على دعوة أصحابه إلى منزله ويحسنوا استقبالهم فيه ؛ فالآباء بهذا يعطون المراهق صكا بالموافقة على ما هو مجال حيوى فى اهتماماته ، ويؤثرون كذلك بطريق غير مباشر على اختياره لأصدقائه ... ولما كان المراهق يظل أبدا بحاجة إلى الأمن الذى تكفله له الأسرة — التى يلوذ بها خاصة عند فشل تجاربه ومخاطراته خارجها — فإن سلوك الآباء الحكيم فى هذه الفترة ، حقيق بأن يوفر على المراهق الصراع الذى قد ينشأ بين ولائه لأسرته وولائه لمجموعة النظراء والصحاب!

٣ — ويحمل التطور نحو الرجولة فى طياته اهتماماً حيوياً ثالثاً لعله فى مقدمة الاهتمامات فى المراهقة ؛ ذلك هو الاهتمام بالجنس الآخر وبالموضوعات المتعلقة بالوظائف الجنسية وتكوين الأسرة والنجاح فى المجالات الاجتماعية المختلطة . ويمر هذا الاهتمام بأدوار مختلفة لا تنطبق تماماً عند جميع المراهقين ، كما تختلف مظاهره وآثاره فى سلوك المراهقين باختلاف الحضارات ، والمصطلحات الاجتماعية الخاصة بالعلاقات بين الجنسين ، وإمكانيات الزواج

المبكر ، والفرص المتاحة لاشتراك الجنسين فى حياة المجتمع .. وتنشأ كثير من الانحرافات فى المراهقة عن اشتطاط بعض البيئات فى فرض القيود وأنواع التحريم على موضوعات الجنس ، وانعدام التوجيه المناسب ، ونقص الثقافة الجنسية الصحيحة .. إلى جانب الخبرات الخاصة التى يمر بها بعض المراهقين ، والعناصر المدعمة لاتجاه الانحراف فى أساليب التربية المنزلية !!

٤ — ويتطور المراهق نحو الرجولة وتنمو مقدرته على التجريد العقلى ، يشعر كذلك شعوراً متزايداً بالحاجة إلى فهم نفسه وفهم الكون المحيط به وما يربط بينهما من علاقة .. وهذه الحاجة التى تنشأ منذ الطفولة (بدليل ما يسأله الأطفال من أسئلة حول ظواهر الطبيعة وما وراء الطبيعة !) والتى تميز الإنسان عن غيره من الكائنات ... هذه الحاجة تقوى وتشتد درجة فى المراهقة ، فإذا بالمراهق يسعى فى البحث عن القوانين العامة التى تفسر له الظواهر المحيطة به وتلخصها وتربط بينها ، ويحاول أيضاً الاستبصار بما يمر به من خبرات وأحوال متغيرة ، كما يعيد النظر فى معتقداته الدينية والاجتماعية والمذهبية يريد أن يصل فيها إلى نتائجه الخاصة ! .. ويتأثر المراهق فى هذا اللون الفلسفى ، بالنضوج فى كثير من قدراته العقلية — وبخاصة القدرة على التفكير الرمزى والمجرد ، وبالاتجاهات الاستقلالية التى تصاحب الانسلاخ من الطفولة والتقدم نحو الرجولة ، وهى الاتجاهات التى سبقت إليها الإشارة .

ومن المبالغة الزعم باشتراك المراهقين جميعاً بدرجة متساوية فى هذه

الاهتمامات العقلية ، على أنه يمكن القول بأن الاتجاهات الفلسفية والفنية والعلمية التي تميز خاصة الناس في المجتمع ، تظهر عادة في هذه الفترة من فترات الحياة .. ولقد يغرق بعض المراهقين في التأملات الفلسفية والشكوك الدينية ، فيكون ذلك — في كثير من الأحيان — عرضاً من أعراض اضطرابهم النفسي ، ومظهراً لخلو حياتهم من الاهتمامات العملية الاجتماعية ولقصور مجموعاتهم عن الإشباع السليم لحاجاتهم النفسية !

تفسير المراهقة

هذه بعض آثار التغيرات التي تطرأ على النمو في المراهقة .. وبالرغم من اتفاق المراهقين في الشكل العام للتغيرات الجسمية وتغيرات النمو الأخرى فإن بينهم فروقا فردية واسعة في سائر نواحي النمو ، لها — دون شك — توابعها في توافقهم النفسي . كذلك يختلف تأثر المراهقين بتغيرات النمو باختلاف استجابة مجتمعاتهم لها ، التي تؤثر بالتالي على استجاباتهم أنفسهم !

ويلاحظ أن نظريات المراهقة التي اتجهت إلى تشابه المراهقين في خصائصهم السلوكية ، إنما بنت على اشتراكهم في حدوث التغيرات الجسمية واعتبارات التطور نحو الرجولة ، دون النظر إلى اعتبارات البيئة الاجتماعية التي تخلع على الاعتبارات الأولى دلالتها . وإذا كانت هذه النظريات قد أدخلت في حسابها أحياناً تأثيرات البيئة الاجتماعية ، فقد اتجهت إلى اعتبار هذه البيئة موحدة بالنسبة للمراهقين جميعاً ، ونسيت

إليها أحكاماً عامة وتأثيرات متجانسة ، وأهملت مابها من اختلافات كبيرة وعوامل متغيرة ! . . . وصحيح أن البيئة الاجتماعية تؤثر فى التكيف النفسى على مر الزمن ، إلا أن التأثير فى المراهقة ذو أهمية خاصة ، وذلك لتزايد سرعة النمو واتساع رقعة البيئة الاجتماعية كذلك . وعليه ، فإن تأثر المراهق ببيئته وتأثيره فيها — هذا التفاعل المتبادل — له شأن أهم واحتمالات أخطر من ذى قبل ! !

والنظرية المقبولة فى المراهقة والتى تتفق مع نتائج الدراسة الحالية ، هى أن المراهقة تتأثر فى تكيفها باعتبارات من نوعين ؛ فهناك أولا اعتبارات النمو الفائق السرعة والتغيرات المختلفة المرتبطة بالتطور نحو الرجولة ، وهناك ثانياً اعتبارات الثقافة المحيطة وثقافة المجموعات التى يدور المراهق فى فلكها ، بما يميزها من قيم ومثل وأنواع الضوابط والضغوط الاجتماعية . . . وعلى نتاج التفاعل والاحتكاك بين هذين النوعين من الاعتبارات ، أى بين مراهق متطور وبيئته الاجتماعية ، تتوقف سمات المراهقة ومعالمها فى حالة (زيد) من الناس . ويتأثر هذا التفاعل — بطبيعة الحال — بعناصر من خبرات المراهق السابقة وبنائه الجسمى النفسى !